

المعنى الحقيقي للمسكنة

سؤال: كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: "اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مُسْكِينًا، وَأَمِتْنِي مُسْكِينًا، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ"^(٣٨)، فكيف نفهم هذا الدعاء النبوي؟ وما الدروس المستفادة منه؟

الجواب: المسكين كلمة مشتقة من الجذر "سَكَنَ"، وتعني لغة: الإنسان الذي استسلم للراحة والخمول، وتوقفت حركته، فلم يعد يكسب أو ينتج، وشرعًا: ذاك الذي لا مال له، يفترش الأرض ويلتحف السماء؛ ومن ثمَّ فالمسكين من الناحية المادية أسوأ حالًا من الفقير؛ لأن الفقير هو الذي لا يملك من المال ما يبلغ نصاب الزكاة (المقدر بحوالي ثمانين غرامًا من الذهب)، بمعنى أن لديه من المال قدرًا قليلًا، أما المسكين فهو لا يملك حتى هذا القدر القليل، وعلى ذلك فالمسكين هو الذي يقبل الزكاة والصدقة، ولا دخل له سوى المعونات من الآخرين.

(٣٨) سنن الترمذي، الزهد، ٣٧؛ سنن ابن ماجه، الزهد، ٧.

المسكنة المذمومة الواجب اجتنابها

لم يكن النبي ﷺ يرضى أبداً بالركود والخمول، وإهمال العمل، أو أن يكون عالّةً على أحد، وكيف لا وهو الذي شنّ حرباً ضروساً على التسوّل، وذمّه في أحاديث كثيرة، وحذّر أمته منه!؟ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ يسأله، فقال: "أما في بيتك شيء؟" قال: بلى، جلس نلبس بَعْضَهُ وَنَبْطُ بَعْضُهُ، وَقَعْبُ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ، قَالَ: "اَتْنِي بِهِمَا"، قَالَ: فَأَتَاهُ بِهِمَا، فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ، وَقَالَ: "مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟" قَالَ رَجُلٌ: أَنَا، أَخَذَهُمَا بِدَرَاهِمَ، قَالَ: "مَنْ يَزِيدُ عَلَى دَرَاهِمَ" مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، قَالَ رَجُلٌ: أَنَا أَخَذَهُمَا بِدَرَاهِمَيْنِ فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ، وَأَخَذَ الدَّرَاهِمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ، وَقَالَ: "اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَأَنْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قُدُومًا فَأَتْنِي بِهِ"، فَأَتَاهُ بِهِ، فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُودًا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: "اذهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ، وَلَا أَرَيْتَكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا"، فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ، فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ، فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا، وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةَ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لثَلَاثَةٍ: لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْطَعٍ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ" (٣٩).

وفي هذا الصدد يقول النبي الأكرم ﷺ أيضاً: "الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى" (٤٠).

وهنا استخدم ﷺ أسلوب الكناية، مشيراً إلى أن اليد التي تعطي خير من اليد التي تأخذ، وكأنه يقول محفزاً المؤمنين على أن تكون أيديهم هي العليا:

(٣٩) سنن أبي داود، الزكاة، ٤٢٦؛ سنن ابن ماجه، التجارات، ٢٥.

(٤٠) صحيح البخاري، الزكاة، ٤١٨؛ صحيح مسلم، الزكاة، ٩٤، ٩٧.

"لا تقللوا من كرامتكم وعزتكم الإنسانية بالترلف والتودد إلى الآخرين، وما دمتم تمتلكون يدًا تعمل ورجلاً تمشي فاعملوا على تأمين معيشتكم بأنفسكم، ولا تكونوا عالةً على أحد"، ومع هذا فقد أجاز الإسلام التسول عند الضرورة، ويزول الجواز بزوال الضرورة؛ مثل الجوع والعطش، فيجوز التكفف بالقدر الذي يدفع عن الإنسان الضرر والهلاك، وما سوى ذلك فلا، كما أن القرآن الكريم أباح أكل لحم الخنزير لمن وقع في خطر محقق، ولكن بالقدر الذي يحفظ به حياته ليس إلا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة البقرة: ١٧٣/٢)، فانتفى الإثم عن المضطر على قدر ضرورته فقط.

وقد استوعب السلف ﷺ هذا السرّ الوارد في الحديث الشريف، فأوصوا بصيانة كرامة الفقير، بأن يجعل المعطي يده أسفل يد الفقير عند إعطائه الصدقة أو الزكاة، ولقد لعبت "أحجار الصدقة" التي ظهرت في عهد الدولة العثمانية دوراً مهماً في الحفاظ على عزة وكرامة الفقراء؛ حيث كان الأغنياء يضعون صدقاتهم في هذه الأحجار، ثم يأتي الفقير ويأخذ قدر احتياجه منها فقط؛ مما يدلّ على نقاء السريرة وصفاء القلب، وشعور التعاون والتضامن بين أفراد المجتمع العثماني آنذاك، بل يمكن أن يقال إن ذلك المجتمع كان يشبه الملائكة في السماء، فها نحن الآن رغم وجود كمّ هائل من رجال الشرطة والأمن فإننا لم نلمس -مع الأسف- مثل هذا الجوّ من الأمان الذي كان متوفراً في تلك الأيام؛ حيث لم يعد هناك رادع قلبي، ولم تعد الآخرة محور اهتمام الناس، كما أن الشعور بالمحاسبة قد قُتل في نفوس الناس، والحق أن الذي مات هو قلب الإنسان وضميره.

المسكنة الممدوحة، ورغبة الرسول في أن يكون عبداً رسولاً

في ضوء ما سبق يتبين لنا أن سيدنا رسول الله ﷺ لم يسأل الله تعالى المسكنة التي تعني سؤال الناس ومدد اليد إليهم، وإنما المقصود بالمسكنة هنا هو العيش المتواضع، أو الشعور بالعجز والفقر إلى الله، ولقد عرّف الأستاذ النورسي رحمه الله ذلك الفقر الذي جعله أساساً لدعوته بأنه إدراك الإنسان أنه لا يملك شيئاً في الحقيقة، والشعور بالحاجة إلى الله تعالى، وصاحب هذا الشعور العظيم يلوذ إلى حماية الله تعالى وحفظه وكلاءته قائلاً: "يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيْثُ أَصْلِحْ لِيْ شَأْنِيْ كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِيْ إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ" (٤١).

لقد كان سيد الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليه يرجو أن يحيا بهذه المشاعر، ويرحل بها إلى أفق روحه، وأن يُحشَر مع هؤلاء المساكين الذين يلجؤون إلى الله دائماً، ويحلّقون في الآخرة بجناحي العجز والفقر، وبعبارة أخرى: إن النبي ﷺ سيكون مرشداً ورائداً لأصحاب هذا الشعور في الآخرة أيضاً؛ لأنه عاش طوال حياته كواحدٍ من الناس، ولم يتخلّ قط عن محوّه وتواضعه، فعن أمنا عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "كَانَ يَأْتِي عَلَيْنَا الشَّهْرُ مَا نُوقِدُ فِيهِ نَارًا، إِنَّمَا هُوَ التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنْ نُؤْتَى بِاللُّحِيمِ" (٤٢)، ومن يدري ربما النبي ﷺ كانت تساوره -في وقتٍ ما- بعض الأفكار حول مسؤوليته تجاه أهله.

لقد جلس جبريل إلى النبي ﷺ، ونظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال له جبريل: هَذَا الْمَلَكُ مَا نَزَلَ مِنْذُ خُلِقَ قَبْلَ السَّاعَةِ، فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ:

(٤١) السنائي: السنن الكبرى، ٢/٢١٢؛ الحاكم: المستدرک، ١/٧٣٠؛ البيهقي: شعب الإيمان، ٢/٢١٢.

(٤٢) صحيح البخاري، الهبة، ١، الرقاق، ١٧؛ صحيح مسلم، الزهد، ٢٦-٢٨.

يَا مُحَمَّدُ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ أَمَلَكًا جَعَلَكَ لَهُمْ أُمَّ عَبْدًا رَسُولًا؟ فَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ ﷺ: "لَا بَلْ عَبْدًا رَسُولًا" (٤٣).

لقد عاش النبي ﷺ فقيرًا، وعندما رحل إلى أفق روحه لم يخلف مالا يُحاسب عليه في الآخرة؛ فقد أعطى نعم الله حقها، وأنفق كل ماله في سبيل الحق ﷻ، فسار إلى الديوان المقدس أبيض الوجه ناصع الجبين طاهرًا نقيًا.

صرح العفة وأبطالها

ومع هذا لم يركن النبي ﷺ للدعة والخمول، ولم يشك لغير خالقه ما تعرّض له من أزمات، ولم يكن عالّةً على غيره، وما استعطى أحدًا، ولم يكن يقبل الصدقة والزكاة أبدًا؛ حتى إنه قد حرّم الصدقة على نفسه وآل بيته (٤٤)، وإذا ما جاءت هدية وزعها على الآخرين (٤٥)، حتى إنه قبل أن يرتحل إلى أفق روحه اشترى طعامًا بأجلٍ من يهودي؛ حتى يفي بحاجيات أهله، ورهن درعه المبارك عوضًا عنه، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: "تُوَفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ، بِثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ" (٤٦)، ومن المحتمل أن الصحابة رضوا لم يكن لديهم علم بذلك، فلو علموا لفعلوا ما استوجبه هذا الأمر.

كان النبي ﷺ أجودَ من الريح المرسلة، يُعطي عطاءً من لا يخشى الفقر، أنفق كل ماله في سبيل الله، وعاش -بمحض إرادته- حياةً أقلَّ من درجة أي فقير من أمته، ومع ذلك لم يمدّ يده إلى أحدٍ مستجديًا، بل لم يقيم بأي إشارة تدلّ على ذلك؛ إذ كانت المسكنة التي ينشدها هي

(٤٣) أبو يعلى: المسند، ٤٩١/١٠؛ مسند الإمام أحمد، ٧٧/١٢؛ صحيح ابن حبان، ٢٨٠/١٤.

(٤٤) صحيح البخاري، الزكاة، ٦٠، الجهاد، ١٨٨؛ صحيح مسلم، الزكاة، ١٦١.

(٤٥) صحيح البخاري، الزكاة، ٥٠، الرقاق، ٢٠؛ صحيح مسلم، الزكاة، ١٢٤، الفضائل، ٥٠.

(٤٦) صحيح البخاري، الجهاد، ٨٩؛ سنن الترمذي، البيوع، ٧؛ سنن ابن ماجه، الرهون، ١.

تفضيل الحياة البسيطة العادية مع إظهار مزيد من الكرم والمروءة، ولأنه صلوات ربي وسلامه عليه صرّح العفة الشامخ لم يكن يتشوّف لأيّ شيء من الآخرين.

وكما أنه ﷺ كان رمزاً فريداً في العفة؛ فقد عاش ساداتنا الصحابة الكرام الذين اقتفوا أثره خطوة بخطوة حياتهم أبطالاً للعفة، ولقد بجّل القرآن الكريم وامتدح أبطال الإسلام الأول الذين لم يتكفّفوا الناس ولم يسألوهم شيئاً، ولم ينظروا إلى ما في أيدي غيرهم ولم يُسلموا أنفسهم للتسول رغم ما عانوه من خصاصة وحاجة وشظف في العيش فقال: ﴿يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ (سورة البقرة: ٢/٢٧٣).

أجل، إننا حينما ننظر إلى حياة الصحابة الكرام نجدهم قد استنكفوا بحساسية مرهفة وحقيقية عن شتى صور الاستعطاء والتكفّف، وسدّوا احتياجاتهم ودبروا أمور معيشتهم من كدّ أيمانهم وعرق جباههم، فمثلاً عبد الرحمن بن عوف ؓ أخذ العشرة المبشرين بالجنة اضطرّ إلى ترك كلّ ثروته في مكة مهاجراً إلى المدينة، إلا أنه ما إن واصل إلى المدينة حتى سأل عن السوق وبدأ العمل، ولم يقبل معونة من أحد، وهو القائل: لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ أَخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ: إِنِّي أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَالاً، فَأَقْسِمُ لَكَ نِصْفَ مَالِي، وَأَنْظُرُ أَيَّ زَوْجَتِي هَوَيْتَ نَزَلْتُ لَكَ عَنْهَا، فَإِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتُهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ، هَلْ مِنْ سَوْقٍ فِيهِ تِجَارَةٌ؟ قَالَ: سَوْقٌ قِيْقَاعٍ، فَعَدَا إِلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، فَأَتَى بِأَقِطٍ وَسَمْنٍ، ثُمَّ تَابَعَ الْغُدُو...^(٤٧)، لكنه ما لبث

أَنْ أَصْبَحَ -بِعَوْنِ اللَّهِ وَعِنايَتِهِ- مِنْ أَثَرِي أَثْرِياءَ الْمَدِينَةِ فَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا عَائِشَةُ فِي بَيْتِهَا إِذْ سَمِعَتْ صَوْتًا فِي الْمَدِينَةِ، فَقَالَتْ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: عَيْرٌ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَدِمَتْ مِنَ الشَّامِ تَحْمِلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ -وَكَانَتْ سَبْعِمِائَةَ بَعِيرٍ- فَارْتَجَّتِ الْمَدِينَةُ مِنَ الصَّوْتِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: "قَدْ رَأَيْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ حَبْنًا"، فَبَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، فَقَالَ: إِنْ اسْتَطَعْتُ لَأَدْخُلَنَّهَا قَائِمًا، فَجَعَلَهَا بِأَقْتَابِهَا، وَأَحْمَالَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ ^(٤٨). أَجَلْ، إِنَّ ساداتنا الصحابة الكرام الذين خبروا شَيْنَ سلوكِ التسوّل بحثوا عن سبل الكسب والعيش الحلال دائمًا مما تكسبه أيديهم رغم ما كابدوه من حاجةٍ وفقرٍ حقيقيّين، ومن ثَمَّ فَإِنِّي أرى أَنَّهُ لَا يَلِيقُ بِمَنْ يُنْفِقُونَ أوقاتهم ويخدمون في سبيل الله تعالى أَنْ يَتَشَوَّفُوا لِلْحَصُولِ عَلَى مَنْحَةٍ أَوْ عَطِيَّةٍ مِنَ الْآخِرِينَ، فَالْأَفْضَلُ دَائِمًا الْأَكْلُ مِنْ عَرَقِ الْجَبِينِ وَلَوْ حَتَّى بِالْعَمَلِ فِي قِطْعِ الْأَحْجَارِ، أَوْ تَنْظِيفِ الْمَبَانِي وَالْعِمَائِرِ، غَيْرَ أَنَّ ثَمَّةَ بَعْضِ الْمَوَاضِعِ وَالْخِدْمَاتِ الَّتِي يَشْتَغِلُ بِهَا الْإِنْسَانُ لَا تَسْمَحُ لَهُ أَنْ يَمَارِسَ عَمَلًا آخَرَ غَيْرَهَا، وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الظُّرُوفِ فَحَسَبَ قَدْ يُرَخَّصُ لِهَذَا الْإِنْسَانِ بِاسْتِعْمَالِ قَدَرٍ مِمَّا يَمْنَحُ لَهُ بِحَيْثُ يَسْتَطِيعُ تَوْفِيرَ احتياجاته الضرورية فحسب.

وَإِنِّي شَخْصِيًّا أَشْعُرُ دَائِمًا بِضُرُورَةِ التَّفَتِيشِ فِي حَيَاتِي عَنْ هَذَا الشَّأْنِ وَتَحَرِّيهِ، فَمَثَلًا عَمِلْتُ بِالإِمَامَةِ مَدَّةَ ثَلَاثِ سِنَوَاتٍ قَبْلَ التَّحَاقِّي بِالْجَيْشِ لِأَدَاءِ الْخِدْمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ، وَالْحَقِيقَةُ أَنِّي كُنْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَشْبِعَ نَفْسِي بِوَجْهِةٍ وَاحِدَةٍ فَحَسَبَ يَوْمِيًّا مِنْ رَاتِبِي الَّذِي كُنْتُ أَنْفَقُ مَعْظَمَهُ عَلَى الْكُتُبِ وَالْخِدْمَاتِ، فَلَمَّا عُرِضَتْ عَلَيَّ وَظِيفَةُ الْعَمَلِ بِالْوَعْظِ شَعَرْتُ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ أَسْتَفْتِيَ أَحَدًا: هَلْ يَجُوزُ الْقِيَامُ بِوِظِيفَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ

عن المنكر بمقابل ماديٍّ؟ فسألت أحد أقرب طلاب الأستاذ بديع الزمان عن هذه المسألة، فنقل إليَّ أن السؤال نفسه طُرِحَ على الأستاذ بديع الزمان وأنه أجاب عنه بقوله: "إن لم يسمحوا لك بالوعظ والإرشاد حين لا يوظفونك في هذا المجال فاقبل هذه الوظيفة، وإن لم تكن لديك حاجة إلى هذه الأموال فادفعها إلى من يحتاجها، غير أنك إن كنت محتاجاً فخُذْ من راتبها بقدر حاجتك فحسب"، وعليه فقد انتسبتُ أنا كذلك لمهمة الوعظ؛ فأخذتُ من الراتب الذي خُصَّص لي من الوعظ بقدر ما يسدُّ احتياجاتي الضرورية، وتركْتُ الباقي منه لذوي الحاجة طلباً لرضا الله تعالى، فلما أصبح هناك أجرٌ يأتي من تأليف الكتب لم تمسَّ يدي هذا الراتب، وطلبت أن يُمنح للمحتاجين.

ورجال الخدمة في يومنا هذا أيضاً ينبغي لهم ألا يسألوا الآخرين شيئاً، بل إنَّه ليجب على الآخرين أن يُهرولوا وراءهم من أجل توفير احتياجاتهم الضرورية، قائلين: "ثمة حاجة وضرورة لهذا كي تخدموا وتتجوا في مجالاتٍ أخرى فتنفعوا المجتمع أكثر"، وفي مثل هذه الأحوال فقد تقبلون كارهين لا راغبين ما يخصصونه من مبلغ بسيط، أما خلاف ذلك من أن يربط الإنسان حياته بما يأتي من الآخرين فإن هذا يدخل -في رأيي- في إطار المسكنة والذلة التي عابها وذمها القرآن الكريم والسنة المطهرة.

الإنسان ليس مخلوقاً رخيصاً يُشترى ويُباع بالمال

يجب أن تكون القلوب المؤمنة في عصرنا الحالي أكثر حساسية في هذا الموضوع، وتهتم وتنبه لأن تعيش طيلة حياتها شريفةً عزيزةً، وعليها ألا تتشوّف إلى أيِّ شيءٍ في أيدي الآخرين مهما كان بسيطاً،

وألا تضطرّ لدفع بدل ومقابل لأيّ إنسان. أجل، ينبغي لهم باعتبارهم أبطال العفة ألا يتذلّلوا لأحدٍ ولا يهِنُوا، وإلاّ فإنّ شباك المنفعة والمصلحة المتعددة تُخضع إليها هؤلاء الساعين في سبيل الدين وتستعبدُهم، ثم يأتي يوم تجبرهم فيه على التنازل عن شيءٍ من دينهم والعياذُ بالله.

ومن المؤسف جدًّا أننا نرى كثيرًا من الأمثلة المؤلمة لهذا في عصرنا. أجل، نرى ونحن نتقطع ألمًا ومرارةً أن البعض يتمّ شراؤهم ثم استغلالهم بمختلف الطرق وشتى الوسائل، في حين أن الإنسان ليس مخلوقًا يُشترى ويُباع بالمال، ولا ينبغي أن يكون كذلك، فقيّمته وثمرته هو نيل الجنة، وذروته الفوز برضا الله والنظر إلى جماله، وما عدا ذلك فلا قيمة له. أجل، حتى وإن قُدِّر أن يكون فتح إسطنبول بدلًا ومقابلًا للإنسان فيستحيل أن يكون هذا أيضًا ثمنًا يبيع الإنسان به نفسه، أي إنّهُ حتى وإن كانت إسطنبول ستُفتح إذا بيع الإنسان فعليه ألا يرضى بهذا أيضًا، لأن عزة الإنسان وشرفه أسمى وأعلى بكثيرٍ من هذا كلّهُ.

وإن لم نعرف أنّ البعض ممن في هذه الدائرة القدسية قد وصل إلى صفاء الروح بهذا القدر لكان هذا جحدًا ونكرانًا للحقيقة، غير أنه يجب علينا أن نسعى من أجل إيصال الجميع إلى هذه الحالة الروحية، وتُبيّن للناس قيمة الكسب من عمل اليد، وحماية السمعة، وقيمة العيش في عزّة وكرامة؛ لأن اختيار سيدنا رسول الله ﷺ أن يكون عبدًا رسولًا يُظهر أنّه يُمكن دائمًا تمثيلُ منهج الخدمة -التي تعتبر امتدادًا لمنهج ومهمة الرسالة- وأداؤه بنفس الحالة الروحية.

لقد رأيت في الفترة التالية عقب رحيل فضيلة الأستاذ بديع الزمان إلى دار البقاء معظم الطلاب الذين كانوا يُجالسونه، وقد كان في عموم

تركيا آنذاك بضعة بيوتٍ للخدمة تسودها البساطة، ولا طعامٌ فيها سوى الحساء اليتيم الخالي من الدسم، وكان يُكتفى بقطعة خبز وجُبِنٍ إلى جوار كوب من الشاي إدامًا، غير أنهم كانوا يعيشون شوقًا ونشوةً حقيقيةً في خدمة الحقّ؛ فشَبُّوا وانتشوا كالجَوَادِ عشقًا للخدمة، ومن ثمّ يمكن القول إنَّهم هم من اضطلعوا بالخدمة الأساسية، وهيؤوا لكم الأرضية الحالية؛ فحرثوا الأرض، وبذروا الحبوب، ثم تعهدوها بالرعاية والعناية، فكان العملُ في موسم الحصاد من نصيبكم أنتم.

وقد يُثْقَلُ على البعض العيشُ في عفةٍ واستغناء بهذا القدر، إلا أن مهاجري الغاية المثالية الذين عشقوا فكرة علوية سامية يجب عليهم أن يسعوا ويجتهدوا دائمًا لبلوغ هذا الأفق.

وينبغي ألا ننسى أبدًا أنّ استمرارَ هذه الغاية السامية مرهونٌ ببقاء هذه الأخلاق والخصال الحميدة فحسب، لأنكم إن عثتم حياة مبهرجةً طنانة اهتزت - لا قدر الله - ثقتهم بكم اهتزازًا يجعلهم يتخلّون عنكم، وحينها تتوقف - لا قدر الله - الأنشطة المنتشرة في بقعة جغرافيةٍ مترامية الأطراف من العالم. أجل، إنّ مثل هذه الخدمات تُقدّم للإنسانية جمعاء؛ ولو لم يكن هناك تضحياتٌ جمّة وغفيرةٌ من متطوّعين لا معدودين لما كان من الوارد استمرارُ هذه الأنشطة والفعاليات، وقد يسأل البعض في يومنا الحاضر أسئلة تشكيكيةً واتهامية؛ إما غيرّةً منه أو حسدًا رغم علمه جيدًا حقيقة الأمر: "من أين يأتي ماء هذا الطاحون؟"، والمؤكد أنّ دواليب هذا الطاحون لا تدور بالماء أو بالرياح، بل بالمروءة والبسالة والتضحية التي أبداهما إنسان الأناضول من قبل في حرب الاستقلال على نحو حيّر العقول والأذهان؛ وعليه فينبغي النأي عن ارتكاب أيّ خطأ - حتى ولو

كان صغيراً تافهاً- يشئت أذهان هؤلاء الداعمين الكرماء ويدفعهم إلى إساءة الظن، فهذا -إن حدث- وبالألّ لا قبل لنا بتحمّله، والله مُحاسِبٌ عليه.

لا شك أنّ أيّ رجلٍ من رجال الأعمال والتجار يخوض غمار الحياة التجارية سيعمل ويربح، فليبارك الله تعالى لهم في تجارتهم، وعليهم أن يواصلوا العمل والربح، إلا أنّ الأرواح التي نذرت نفسها للحقّ المهاجرة إلى غاية سامية المضطّرة إلى أن تعيش حياةً بسيطةً بالنظر إلى وضعها، عليها أن تفضّل حياة زاهدة متواضعة حتى آخر أنفاسها، وتستغني عن الدنيا وتهب أحاسيسها ومشاعرها وأذهانها وقلوبها بل وأنفسها بشكل كاملٍ لخدمة الإيمان والقرآن الكريم.